المقاصد والمكاسب بين النجاح وقيمة الإنسان

يحتاج الإنسان إلى معيار يفرّق به بين ما يستحق السعي وما لا يستحقه، فليس كل ما يستطيع بلوغه جديرًا بأن يُنفق عليه العمر، ولا كل ما يرفع صاحبه في أعين الناس يرفع من قدره في الحقيقة، وقد يقضي المرء سنوات في تحسين دخله وتوسيع عمله ومكانته منشغلًا بمقدار ما يحقق، ذاهلًا عن قيمته.

ولهذه المكاسب منافع حقيقية فالمال يزيد قدرة صاحبه على الاختيار والمنصب يوسع سلطانه والشهرة تزيد حضوره بين الناس وكل ذلك له اعتباره، لكن الخلل يبدأ حين ينتقل المقياس من الشيء إلى صاحبه، فيصبح ارتفاع الدخل دليلًا على رفعة الإنسان، وكثرة من يحيطون به دليلًا على علو شأنه، وارتفاع سعر عمله دليلًا على عظم أثره.

ويفرّق الغزالي في كتابه "ميزان العمل" بين المكاسب الظاهرة التي تحوز إعجاب الناس، وبين القيمة الوجودية التي لا تزن الإنسان إلا بمقدار تزكية نفسه واستقامة غايته. فقيمة العمل عنده ليست حكمًا على قيمة الإنسان، إذ قد يكون العمل قليل العائد وأثره في حياة صاحبه أو غيره عظيم.

وإذا كان الغزالي يضع معيار القيمة الداخلي، فإن علي عزت بيجوفيتش يشخّص في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب" كيف تفقد الحضارة المادية هذا المعيار، إذ تختزل الإنسان في قدرته على الإنتاج والاستهلاك فتقيس قدره بما ينتجه لا بما يحمله من فضيلة وما يتركه من أثر يتجاوز المنفعة العاجلة.

فالإنسان قد يريد شيئًا ويبلغه، ثم لا يكون بلوغه دليلًا على حسن اختياره، وقد يحسن التخطيط ويثابر ويتفوق على منافسيه، ثم يكون قد أحسن كل هذه الأشياء في سبيل غاية لا تستحق ما أنفقه عليها.

ولذلك يكشف القرآن وجهًا آخر للخسران، فيقول سبحانه وتعالى في سورة الكهف: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

والخطر الذي تكشفه الآية ليس أن يخطئ الإنسان في وسيلة ثم يفشل وإنما أن يستقيم له السعي في طريق لا ينبغي أن يكون غايته، وأن يظل راضيًا عن حصيلة عمره لأنه يقيسها بالميزان الذي اختاره لنفسه.

ولهذا تأتي الغاية التي يُستدل بها على قيمة الأشياء، قال تعالى في سورة الذاريات: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

إذا كانت هذه هي الغاية، صار للعلم والعمل والمال مكانة مختلفة، فلا يعود العلم وجاهة ولا العمل مجرد مصدر للدخل ولا المال برهانًا على التفوق، لكل واحد منها قيمة بقدر ما يخدم به الإنسان غايته وبقدر ما يحسن استعماله.

وعندئذ يمكن النظر إلى النجاح في أشياء أقرب إلى حياة المرء: أن يتعلم ما ينفعه وأن يتقن ما يقوم به وأن يخرج من عمله ما يتجاوز منفعته الخاصة وأن يكون لعلمه أو مهنته أو ماله نصيب في بناء شيء يحتاج إليه الناس.

وقد يعيش الإنسان حياة ناجحة بحسب المقاييس المعتادة، يتعلم ويعمل ويكسب ويؤمّن مستقبله، ثم يمر أمام ظلم يستطيع دفعه فيختار الصمت، أو يرى فسادًا يستطيع إنكاره فيؤثر السلامة، عندها ينكشف جانب من قيمة الإنسان لا يظهر في دخله ولا في سيرته المهنية.

قال تعالى في سورة هود، في وصف من بقي في الأمم السابقة من أهل الصلاح: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ)

ولا يُطلب من المرء أن يحمل هموم العالم كله، ولكن أن يكون لما بين يديه من قدرة وزنٌ حقيقي في اختياراته. فالعلم الذي حصّله والعمل الذي أتقنه والحق الذي أقامه والظلم الذي دفعه كلها أجزاء من معنى حياته لا تظهر بالضرورة في الحسابات التي يتداولها الناس.

وقد يكون الإنسان كثير المال قليل الأثر، وقد يكون مشهورًا وليس في شهرته ما يزيده علمًا أو خلقًا أو نفعًا، وقد يعمل في مهنة لا تمنحه مكانة كبيرة لكنه يؤديها بإحسان وينتفع بها الناس.

فالمعيار الحق ليس كم جمع الإنسان ولا كم بلغ ولا كم عرفه الناس وإنما ما صنعه بما أُعطي، والغاية التي أنفق عمره من أجلها.

ولعل قول الشاعر عبد الرحمن العشماوي يلخص هذا المعنى:

حقيقةٌ لو وعاها الجاهلون لما
تنافسوا في معانيها ولا احتربوا
ما قيمة الناس إلا في مبادئهم
لا المال يبقى ولا الألقاب والرتبُ